بنية الاستشراق الفرنسيّ والمقاومة الجزائريّة نموذج أوجين دوماس

أ.د. وحيد بن بوعزيز
جامعة الجزائر 2 / الجزائر.

تعرف الآن الكثير من المناهج النقدية الأدبية المعاصرة عودة قوية للذاتي التفاعلي ونقدا حصيفا للموضوعي؛ فبعدما سادت النزعة الموضوعية **L'objectivisme** في تخوم النقد الغربي متجسدة في النقد العلموي الوضعاني والسوسيولوجي والبنوي، راحت الآن تختبر أسسها في مخابر مابعدحداثية، تحتفي بالظواهرية والذاتية التفاعلية.

يعتبر النقد الأدبي الكولونيالي ومابعد الكولونيالي سليل الفكر ما بعد الحداثي، ويتجلى ذلك في تقويض الخطاب الغربي المتمركز حول ذاته ونفي الثنائيات الفكرية الفجة السائدة في الخطابات المهيمنة، والاهتمام البالغ بالسرود المطمورة والمهمشة. لهذا يتمرجع هذا الخطاب مع عدة صروح فكرية: حفريات فوكو وتفكيكية ديريدا والنقد الماركسي الجديد مع تيري إيغيلتون.

لا يمكن الطعن في آليات هذا الخطاب النقدي الأدبي الجديد برؤيته خطابا يحمل بين طياته مُفاعِلا انتقاميا، ساهمت في تشكله ترسبات تاريخية وافرازات جيوبولتيكية تعود إلى القرن التاسع عشر. فهذا الخطاب كما بين إدوارد سعيد في كتابه *الثقافة والإمبريالية* وهومي بابا في كتاب *موقع الثقافة* لا بد أن يكون بعيدا كل البعد عن النزعة الضدية، التي تساهم بدورها في إعادة الأزمة الإنسانية بتشجيع ثقافة العنصرية والحقد.

فعلا، لم يخرج إدوارد سعيد وهومي بابا عن التعاليم التي أرسى أسسها فرانز فانون حينما قال بأن المستعمر (بالفتح) يحقق ذاته حينما يصنع مستقبله خارج مرجعية المعية والضدية مع المستعمر (بالكسر)، ولكن لابد من تجنب أية سطحية قد تختزل هذه العملية الانعتاقية في مجرد تعال طوباوي. لهذا لابد من تعميق النظر في العلاقات التثاقفية بين الدول المستعمرة والحواضر، بين الأقاصي والامبراطورية وبين الأصلاني والكولون كي يتحدد تحقيب جديد ومرويات معاكسة تسمح للصوت الذي كان دائما موضوع دراسة أن يُموضِع بدوره مُمَوضِعه.

يكمن خطر هذه الدراسات الأدبية النقدية المعاصرة في مقاربة العلاقات المعقدة للتواريخ الكولونيالية دراسة متعالية بعيدة عن الروابط المادية، فإبعاد فكرة الاستغلال الاستعماري كعنصر جوهري في تحليل السياق الكولونيالي بحجة البنية والمحايدة والمعطيات المعاصرة مثل المنافي والهجنة والمستقبل الإنساني المشترك سيجعل هذه المقاربات تفتقر إلى عنصر يجذبها إلى الواقعية التي تفرض منطق التعرية وأخلاق الاعتراف.

كما يكمن خطر هذه الدراسات في بداية بروز نزعة تفكيكية سبقت أوانها، فالخطاب لم تتبين بعد توزيعاته المعرفية وإمكانياته الاستكشافية **Les possibilités heuristiques** حتى راح بعض الدارسين المهتمين بالدراسات الكولونيالية ومابعد الكولونيالية إلى وضع العربة أمام الحصان ! جاء في كتاب **آنيا لومبا** *في نظرية الاستعمار ومابعد الاستعمار الأدبية* مايلي: "**وكما ذكرنا سابقا فإن الاستعمار في الثلاثينات من القرن العشرين قد مارس حكمه لأكثر من 84.6 بالمائة من سطح يابسة الكرة الأرضية. هذه الحقيقة وحدها تذكرنا بأنه يستحيل على الاستعمار الأوروبي أن يكون عملية تنكشف عن وحدة متراصة وتناغم كلي. ومنذ سنواته الأولى نشر الاستعمار استراتيجيات وطرق**

مختلفة للسيطرة والتمثيل. وتبعا لذلك فإن انواع الخطابات الأوروبية حول الآخر متنوعة. لكن بما أنها انتجت علاقات قابلة للمقارنة (واحيانا متشابهة بصورة عجيبة) من الجور والهيمنة في كل أنحاء العالم، يفوتنا أحيانا بأن الصور والطرق الاستعمارية تنوعت بصورة كبيرة بين زمان ومكان. فمعظم المعلقين المعاصرين يستمرون بالتعميم حول الاستعمار من خلال معلوماتهم المحددة حوله في مكان أو زمان معين... إذن فتركات الاستعمار متنوعة ومتعددة حتى وإن كانت تشترك فيما يبدو في بعض الخصائص."[1]

لا ينكر الباحث المتمعن أن طرق وسبل الاستعمار لا بد أن تفكر بصيغة الجمع، فتعميم مصطلح نقدي يستمد من نقد الاستعمار الانغليزي على تواريخ متباينة لاستعمارات أخرى مثل الاستعمار الفرنسي يعد ضربا من الاسقاط المعرفي الذي لم يتوخ الحذر من مقولة الزمني في تحديد الموضوعي؛ ولعل أحسن مثال على ذلك استعمال بعض النقاد العرب مصطلح **الامبراطورية** الذي أصبح سائدا في النقد الانغلوساكسوني لتطبيقه على التاريخ الاستعماري الفرنسي. فمقارنة بسيطة تبين بأن **الجمهورية** نالت حصة الأسد في تاريخ المستعمرات الفرنسية، زيادة على ذلك كان يصف **لافاييت** مملكة **لوي فيليب** بالجمهورية **1830** م إلى **1848** م كما ادعى من بعد **نابوليون الثالث** أن ثورة **1848م** ذات أسس جمهورية على الرغم من تحويلها إلى امبراطورية أثناء حكمه.

يتبين من هذا أن تحديد الترسانة الاصطلاحية في هذا النقد لا بد أن ينطلق من مسح تاريخي وجغرافي، لكيلا تختلط المقاربات، ولكن على الرغم من كل هذا فإن البحث الذؤوب عن بينة عميقة قارة مشتركة بين كل المشاريع الاستعمارية، خاصة إذا ربطناها بالاقتصاد السياسي سيجعلنا نحدد بطريقة واضحة الأسس النظرية لمقاربة معرفية تتوخى الشمولي في النسبي والمؤتلف في المختلف.

إن التفكيك كإجراء يصبح ذا نجاعة معرفية حينما تتبين البنية وتصبح منغلقة محايثة ونافية للغيرية والانفتاح، فيدعو هذا التأزم إلى البحث عن مسكوتاتة وتقويض مكبوتاته، لهذا قبل التفكير في تشردم معطيات الظاهرة الكولونيالية واختلافاتها لابد من التفكير في الكيفية التي تتم عملية التحكم فيها.

بعد هذا المدخل الذي يشكل موقفا معرفيا، ستتم دراسة نص لم يتطرق له في الكثير من الدراسات الكولونيالية على الرغم من أنه يشكل وثيقة هامة في التعرف على تقنية سردية هامة تحتاج إلى ربطها بالسياق الاستعماري.

عنوان النص هو *غزو منطقة القبائل* **La conquete de la Kabylie للجنرال أوجين دوماس.** ولد الجنرال **دوماس** في المناطق السويسرية عام **1803م** بدوليمون وتوفي **بكومبلان** سنة **1871م**، بعد تقلده أوسمة عديدة في الجيش الفرنسي بشمال إفريقيا واصل حياته سياسيا. تعلم العربية لهذا اسندت له مهمة قنصل عند الأمير عبد القادر ثم أصبح المسؤول العام الأول عن العلاقات الجزائرية. اشتغل مع **الماريشال بيجو والدوق أومال ابن الملك لوي فيليب والجنرال لامورسيير** بالغرب الجزائري. اختص في منطقة القبائل فكان مفاوضا كبيرا مع كبار زعمائها خاصة خليفة **الأمير بن سالم.** كما يعد من الجنرالات الذين رسموا خريطة جديدة للصحراء الجزائرية وفق معطيات تلك الفترة. قادعملية إعادة قمع مقاومة منطقة القبائل بعدما سقطت زمالة الامير تحت يد الاحتلال. زيادة على ذلك كان **دوماس** مستشرقا وإثنوغرافيا، فالنص الذي بين أيدينا يبين اهتمامه البالغ بالقبائل والعروش والأعراف والأخلاق العربية والفرق بينها وبين التقاليد الامازيغية بمنطقة القبائل. كما يبين اهتماما بالغا كذلك بالزوايا وحضور الأبعاد الدينية في منطقة التيطري وبني عريب وبني جعاد.

يعتقد الباحث والمؤرخ الفرنسي **ميشيل لوفالوا** أن دوماس تأثر كثيرا بأبحاث السينسيمونيين الفرنسيين، وعلى رأسهم **إسماعيل أوربان،** ولكن للأسف،

حسب **لوفالوا**، لم يشر **دوماس** إلى **أوربان** ولو مرة في كتبه على الرغم من القرابة الموجودة بينهما: "**لقد استعملت الأعمال الأنثروبولوجية التي قام بها أوربان من طرف أوجان دوماس الذي كان رئيسه في إدارة الجزائر بين 1850م و1860م، حيث طبع عدة كتب في 1853م منها الأعراف والتقاليد في الجزائر، التل، منطقة القبائل، والصحراء، ولكن دون أن نجد ولو إشارة طفيفة إلى مساعده.**"(2)

عندما نطلع على محتوى الكتاب نجده يقترب كثيرا من التقارير التي كان يكتبها الجنرالات والرحالة في القرن التاسع عشر في إطار السياق الكولونيالي. إذ ساهمت هذه النصوص في رسم صورة الآخر بطريقة إسقاطية كان الغرض منها التعرف على الأهالي بغية الهيمنة عليهم، من جهة أخرى كان لابد من رفع التحدي السياسي والاجتماعي عن طريق التشجيع على النزول إلى هذه المستعمرات، **فالاستعارة الكبرى La grande métaphore** التي تحدث عنها كثيرا عالم الاجتماع الفرنسي **ألكسي دوتوكفيل** تبين بطريقة مباشرة الغرض من وراء ربط إرادة السرد بإرادة الهيمنة الإمبريالية.

يندرج، إذن، هذا النص ضمن استراتيجية تعريفية، تعرف بالأصلاني كي تنزع عنه الأسطرة **La démythification** التي جعلته مرهوبا ومرغوبا فيه من جهة، كما يندرج، من جهة ثانية، ضمن ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح نزع الفوبيا من المستعمرات، فدوماس يروي بطريقة مقصودة، ومرات بطريقة تشويهية، الانتصارات والعقلانية الكبيرة التي امتازت بها الإدارة الفرنسية في التعامل مع المقاومة الجزائرية كي يقنع القراء في الميتروبول بنجاحات الرسالة التحضيرية ! ويبين بأن الأهالي في المستعمرات لا يشكلون هذا الخوف الاسطوري الذي يعود إلى عصر الحروب الصليبية في المخيال الأوروبي، فهم بفضل الترسانة العسكرية والتخطيطات العسكرية المعقلنة والحلفاء واستغلال

الانتحارات القبلية وتراجع مقاومة الأمير عبد القادر وتواطؤ بعض القياد مع المؤسسة الإمبريالية في تراجع واندحار كبير.

يرصد هذا النص الملابسات التي أجلت السيطرة على منطقة القبائل إلى الأربعينيات من القرن التاسع عشر، فعناد (حسب **دوماس**) وشهامة القبائل حالت دون الاقتراب منهم او محاولة تأليبهم على **الأمير عبد القادر**. بطل هذا العناد التاريخي هو خليفة **الأمير بن سالم**، شخصية تاريخية معروفة تنتمي قبليا إلى **بني جعاد** وهي قبيلة مفصلية بين **أولاد سباعو والتيطري وبني سليمان ومنطقة القبائل** بداية من **بوزغزا وزبربرية ودلس**.

حاول **دوماس** مليا أن يبين الطريقة التي وظفها الاستعمار الفرنسي في صنع حاجز مادي ورمزي منيع يحول دون منطقة القبائل و**الأمير عبد القادر**، فبينما كان هذا الأخير يراهن كثيرا على الحواضر الكبرى مثل: **وهران وتلمسان والعاصمة والمدية** انتقص نوعا ما من قيمة **منطقة القبائل** التي تفتح وتضمن كثيرا بوابة الشرق الجزائري، فجبالها تفضي مباشرة إلى تونس قاطعة مدنا شرقية كبرى مثل: **بجاية وقسنطينة وباتنة**. فهم **دوماس** أن نقطة ضعف **الامير** تكمن في هذه المنطقة، لهذا رفع تقريرا إلى **الماريشال** والمحافظ **بيجو** كيلا يعزف عن التفكير في اكتساح هذه المنطقة بسبب صفارة الاستنجاد التي أطلقها **الدوق والأمير أومال** في الغرب الجزائري الذي كان يعرف آنذاك معارك طاحنة.

يسلط **دوماس** الضوء في هذا النص على الطريقة التي تم بها التحالف مع بعض خلفاء **الأمير** وهو **بن محي الدين**، مقتنعا بأن العرب إذا ما اعطيت لهم مزايا ولم ينتقص من قدرهم الاجتماعي فلا ضير من المساس بأرضهم وفرض الضرائب عليهم. لهذا وضع **بن محي الدين** خليفة للماريشال **بيجو** في منطقة **سباعو**، وهي منطقة استراتيجية تحول بين الغرب ومنطقة القبائل عن طريق التيطري.

واستعمل **بن محي الدين** الطريقة النفسها التي يستعملها كل حاكم يستغل الانشقاقات القبيلة للسيطرة الكلية، يقول عنه **دوماس:** "**لم يحبه بنو عريب، لقد كانوا يرومون خليفة من صلبهم، أما عن بني سليمان، فإذا كانوا مركز تودد بسبب حبهم الخالص، إلا أنه لم ينسوا أن صاحبهم بن محي الدين ساسهم بالحديد والنار حينما كان خليفة الأمير. أما عن بني جعاد، على الرغم من أنهم كانوا تحت سيطرة هذا الخليفة الجديد فإنهم لم ينسوا قط أن بن سالم منهم ومازالوا يكنون له المودة والموالاة. الكل كان يتمنى الفوضى مع رفض الزعيم الذي اقترحته فرنسا. لقد قرر بن محي الدين أن يتبع المنطق السياسي الصحيح. عزم على نسيان تظلماته الشخصية من أجل المنفعة العامة. ومثل بن سالم، راح بؤلب الزعماء بعضهم ضد بعض، وينقض على القبائل بنقاط ضعفها، باستنزاف كل مؤونتها ويربح في معسكره المتنطعين انطلاقا من وجاهته كمرابط.**"[3]

يمتاز هذا النص بميزة جمالية تحتاج إلى التفكير في أسبابها والغرض من توظيفها. قبل التطرق لهذه الميزة لا بد من توضيح البعد الاستشراقي في هذا النص. لقد كرس إدوارد سعيد كتاب *الاستشراق* كي يفكك الطريقة التي بنى بواسطتها الخطاب الاستشراقي الشرقَ في المخيال الغربي. لم يكن الخطاب الأوروبي الذي طال الشرق محايدا ولم يتوخ الحذر من السقوط في تطابقية الاستشراق مع الشرق، فالشرق أكبر بكثير من هذا الخطاب الذي التبس بالذاتية وتخللته بعض النعرات الاستعمارية وبعض النزعات الفوقية التي ساهمت في بلورتها ظروف متشابكة وجد معقدة.

يقول **إدوارد سعيد** متحدثا عن بدايات الخطاب الاستشراقي الذي خرج من حقبة التجارب الخاصة التأسيسية إلى الدوائر والمؤسسات: "**وعلى هذا النحو انجبت حملة نابليون سلسلة كاملة من المولودات النصية، من كتاب شاتوبريان *الرحلة*، إلى كتاب لامارتين *رحلة إلى الشرق*، وكتاب فلوبير *سالامبو*، وضمن**

الخط نفسه من التراث، كتاب لين *مسالك المصريين المحدثين عاداتهم*، وكتاب ريتشارد بيرتن *مسرد شخصي لرحلة حج إلى المدينة ومكة*. وما يربط هذه المؤلفات ليس خلفيتها الكامنة في الخرافة والتجربة الشرقيتين وحسب، بل هو أيضا اعتمادها المتفقه على الشرق بوصفه رحما منه انبثقت. وإذا كانت هذه المخلوقات قد انجلت في النهاية بما في ذلك من مفارقة ضدية، عن صورة زائفة مؤسلبة إلى درجة عالية وتقليدات محكمة النسج، للصورة التي يمكن أن يتصور الشرق الفعلي الحي عليها، فإن ذلك لا ينتقص إطلاقا من قوة التصوير التخييلي لهذه المؤلفات أو من قوة المعرفة الأوروبية المتقنة للشرق والسيطرة عليها"[4]

على الرغم من أن إدوارد سعيد في هذا النص ذكر فقط المستشرقين الأدباء إلا أنه يقصد كذلك كل كتابة قام بها غربي عن الشرق مهما كانت تطلعاته وتخصصه وميدان اهتمامه، فتحت طائلة المصطلح الذي وضعه في كتابه الاستشراق ***الاستشراق الرمزي/المخيالي*** تندرج عدة انماط من الكتابة تشترك كلها في إرادة التعرف على الآخر باحراز نوع جديد من الأسطرة بغية السيطرة والهيمنة.

دوماس يدخل من هذا الباب ضمن كوكبة من الكتاب الكبار الذي ساهموا في بلورة خطاب عن الشرق انطلاقا من وجهات نظر مشروطة تاريخيا وأطر مرجعية تناصية حددت المسار العام لهذا الخطاب. فهو يشبه كثيرا في كتاباته الجنرال الإنغليزي **شرشل وليون روش وأوربان وأونفونتين.**

زيادة على تدخل الخطاب الاستشراقي في رسم معالم نص **دوماس** يبقى أمر آخر ساعد كثيرا على تشكيل هذا النص بسبب الحفاوة التي أصبحت سائدة عند الكثير من الضباط، انطلاقا من تثبيت أحلام المغامرة والبطولة في الحاضرة المركزية، وهذا العامل يعد دافعا رومانسيا حظي به الجيش الفرنسي في شمال

إفريقيا إذ خلق أفق انتظار واسع جريا وراء **الغرائبي L'exotique** ومجلات الأحداث.

جاء في كتاب **راوول جيراردي** الحامل للعنوان التالي **فكرة الاستعمار في فرنسا:** "**هنالك واقعة جديدة مهمة في التاريخ العسكري الفرنسي برزت مع ظهور نمط اجتماعي مثله الضابط الاستعماري. وهي واقعة مهمة كذلك برزت في مستوى تاريخ الذهنيات، حيث إلى عهد قريب كانت العوام تخلط كثيرا بين ما يمكن أن نسميه الضابط الاستعماري والضابط العسكري. يظهر الضابط الاستعماري في ملهاة الآداب والمسلسلات الشعبية وأدب الأطفال حاملا دائما لبزته. عموما، يمكن أن نقر بأن صورة المحارب المغامر هي التي جعلت في نظر الأغلبية المغامرة الإستعمارية متمثلة ومقبولة.**"(5)

يمكن ان نفهم هذا الدور الإجتماعي والبطولي الجديد الذي حظي به الضابط الكولونيالي كنتاج تلاقح ثقافي وإمبريالي، فالمؤسسة الاستعمارية تحتاج كثيرا إلى **بروباغوندا** كي تشجع أولا الفرنسيين على النزول إلى المستعمرات وثانيا كي تقوم بعملية تعبئة ضباطية واسعة النطاق في مشروعها الاكتساحي الذي يندرج ضمن الصراع على المستعمرات بالمناكب. لا ننسى أنه زيادة على الدافع الاقتصادي والتناقضات الاجتماعية الداخلية الحاثة على التوسع الجغرافي كان عامل التنافس مع المؤسسات الاستعمارية الأخرى خاصة بريطانيا عاملا محفزا لتعبئة وتسخير أكبر الطاقات بغية ضم شمال إفريقيا إلى الحاضرة، خاصة بعد الفشل الذي عاناه **نابليون بونابرت** في **مصر**.

حاول **إدوارد سعيد** أن يدافع مليا عن تقنية أحادية الصوت **La monophonie** في الخطاب الاستشراقي، **فكشك هانم** عند **فلوبير:** "**مسحورة باكتفائها الذاتي، بلامبالاتها العاطفية وكذلك بما تسمح له وهي تستلقي إلى جانبه**

بالتفكير به، وفي كونها عرضا لأنوثة باهرة لكنها غير معبرة لغويا، أكثر منها إمرأة، فإن كشك هي النموذج البدئي لشخصيتي فلوبير سالومبو وسالومي"[6]

يرمي **إدوارد سعيد** من وراء تشبته بأحادية صوت الأخر في أدب الرحلات والتقارير الاستشراقية إلى البرهنة على النزعة المركزية المتعالية في الفكر الغربي كما يرمي إلى تأكيد نزعة موضوعة هذا الآخر كي يكون موضوع دراسة يمكن الهيمنة عليه. فسلب صوت الأخر والتكلم في مكانه هو إفراغ لإنسانيته ومحاولة لاشعورية لموضعته **l'objectivisé** وتجميده.

في نص **دوماس** نجد خرقا لهذه القاعدة وهو ما يدعونا للتساؤل من جديد عن استراتيجيات الموضعة **Les stratégies d'objectivation**. لم يعتمد **دوماس** تقنية الكلام الأحادي لسارده، بل راح يعطي في كثير من المرات الكلام لشخصياته وفق تقنية النصوص المتخللة عن طريق الرسائل والخطابات التي تكلم عنها كثيرا الناقد الروسي **ميخائيل باختين**. هل يعد هذا النوع من توزيع الكلام **الديموقراطي/الحواري** نوعا من أنواع البوليفونية أو تعددية الأصوات **La polyphonie ؟**

تراوحت عملية توزيع الأصوات في نص **دوماس** بين الشخصيات الأوروبية والشخصيات الجزائرية. فخطاب **بيجو** إلى زعماء منطقة **التيطري وسباعو** ذكره **دوماس** بحذافيره وكأن الأمر متعلق بتقرير إعلامي في صحيفة ما، حيث يذكّر فيه بمزايا ومناقب الجنرال الذي استقبل زعماء هذه القبائل بالهدايا والبرانيس.

"لقد أتيتم إلينا أحرارا... أنت أحرار أن تقبلوا أوترفضوا الالتزامات التي ستتكبدونها، إذا رفضتم تحملها إذا شعرتم أنكم غير قادرين على تحملها فالوقت مناسب للامتناع والعزوف عنها"[7]

صور **دوماس** خطاب **بيجو** تصويرا كنائسيا، **فبيجو** الذي فرض على منطقة **التيطري** منطق القوة والردع أصبح رحيما حاملا لرسالة إنجيلية تقدس التسامح والسلام مع العدو في حين سنجد أن **دوماس**، على الرغم من أنه سيترك الكلام على حدافيره لبن سالم عدوه اللذوذ من الصفحة **120** إلى غاية **131**: "**إنه لمن العار أن تظنوا أنفسكم مسلمين أو مؤمنين أو تعرفون عظمة الله وأنتم تطلبون الفضيلة من الكفار وتعيشون تحت أوامرهم... ماذا تقولون في المسلمين الذين يقطنون مع الكفار ويرضخون لأوامرهم...**"[8] إلا أنه سيضعه في سياق سلبي.

لقد لعب السياق في هذا النص دورا بارزا في تحديد منطق قيمي قائم على محور الخير ومحور الشر، ولعل أهم بناء سيميولوجي استعان به دوماس في توجيهه للسياق الارتكاز على صور نمطية عن الأهالي ومحاولة رسم الآخر بإكليشيهات الحيونة **L'animalisation** والتخلف الحضاري؛ يقول **دوماس** مثلا بعدما فرض **بيجو** الزعيم **بن محي الدين** بالقوة على الأهالي الناقمين: "**...حينها يمر مشهد خاص بالأخلاق العربية. بمجرد أن انتهى الجنرال بيجو من كلامه، بقوته المعهودة، طلب المتشددون الذين طالبوا منذ قليل برأس بن محي الدين أن يقبّلوا رجله ويده ...**"[9]

إن البوليفونية التي نتكلم عنها لا تعكس انفتاحا فكريا بدأ يعترف بالآخر ويدرجه ضمن مخيلته النمطية المليئة بالقبليات والمسبقات، **فدوماس** يشكل حالة خاصة نسبيا في محاولة موضعة الأخر بطريقة أقرب إلى تقنيات الرصد الجغرافي (لانسى أن **دوماس** جغرف جزأ من الصحراء الجزائرية) ويشكل حالة تقبل للآخر الأصلاني انطلاقا من التأثر الذي حصل عليه من أفكار **إسماعيل اوربان** والكثير من السينسيمونيين الفرنسيين، الذين على الرغم من عدم تنديدهم بالاستعمار إلا انهم

دعوا إلى الاحترام الثقافي والتبادل الحضاري بين الأمتين ضمن ما سيعرف فيما بعد، في عهد **نابليون الثالث، بالمملكة العربية Le Royaume Arabe .**

يبقى أن بوليفونية **دوماس** في السياق الكولونيالي تساعد بطريقة مباشرة موضعة الآخر **L'objectivation de l'Autre** بطريقة أقرب إلى العلمية، فالطابع التقريري للنص والوضع الخاص لوظيفة **دوماس** يجعلانه يتوخى الموضوعية وإبعاد الذاتية إلى أقصى درجة. فصوت الآخر الذي برز في هذا النص يعكس حالة استنطاق رمزي واستبطان تحليلي لمعرفة سيكولوجية الآخر كي تتم عملية استفراغه من محتواه وحبسه في إكليشيهات مقولبة ونفيه على الإطلاق. ولعل غياب صوت الأصلاني في نصوص **ألبير كامو** بعد قرن تقريبا يعد بمثابة نتاج تاريخي لهذا التطهير الانطولوجي.

في الأخير لا يمكن الاعتقاد بوجود بوليفونية تختزل إلى حدودها الشكلية المادية فقط، فبوليفونية نص **دوماس** يتدخل فيها دائما السياق الكولونيالي لتوجيه عملية القراءة لهذا نجد فيها أن الأبعاد الحوارية التي تعد جوهر النص السردي البوليفوني غائبة بسبب الأبعاد الكولونيالية التي تموضع الآخر (تجعله موضوع دراسة) من أجل تجميده وتسييجه.

يقول **باختين** عن البوليفونية الحوارية ما يلي: "**إن الرواية البوليفونية ذات طابع حواري على نطاق واسع، وبين جميع عناصر البنية الروائية توجد دائما علاقات حوارية أي أن هذه العناصر جرى وضع بعضها في مواجهة البعض الآخر مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقي.**"(10)

إن نص **دوماس** للأسف يفتقر إلى الحوارية لأنّه يفتقر إلى الموسيقى !

الهوامش:

1-آنيا لومبا: في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار، تر/ محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، سوريا، ط1، 2007 ص ص: 31/30.

2 -Michel Levallois, Ismayl Urbain, une autre conquete de l'Algerie, éd, Maisonneuve et Larose 2001, Paris p : 631.

3 -Eugène Daumas, la conquete de la Kabylie, éd, Belles lettres, 2012, p :106

4- إدوارد سعيد: الاستشراق، تر/ كمال أبوديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط 6، 2003، ص 113.

-**5** Raoul Girardet, L'idée coloniale en France, 2d, Hachette, France, 1978, pp : 34/35

6- إدوارد سعيد: مرجع سابق، ص 200.

7 -Eugène Daumas, op,cit, p102.

8 -Ibid,. De la page 120-131.

9 -Ibid,. p : 97.

10-ميخائيل باختين، شعرية دوفتويسكي، تر/ جميل نصيف التكريتي، طبعة توبقال، 1986، بالاشتراك مع دار الثقافة ببغداد، ص 59.